المحاضرة الثالثة: مصطلح النقد

تمهيد

مصطلح النقد لم يكن معروفا متداولا في العصر الجاهلي والعصر الإسلامي، ولم يوجد حتى في المعاجم اللغوية التي ألفت بعد مجيء الإسلام، بل كانت هناك اصطلاحات أخرى مثل: البصر بالشعر، أو المعرفة الشعرية، أو العلم بالشعر، أو الفراسة في الشعر، وحتى كتب النقد أيضا لم تكن تستعمل كلمة نقد في الميدان الأدبي إلا نادرا

تعريف النقد

أ- لغة نَقَد: لغة ضرب الطائر بمنقاره في الفخ. والنقد تمييز الدراهم[1]، ونقده ناقشه في الكلام. ومن الناحية اللغوية وردت الكلمة عند ابن سلام 231هـ أثناء حديثه عن الجهبذة* بالدرهم والدينار، فقال: "وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم، كسائر أصناف العلم والصناعات: منها ما تثقفه العين، ومنها ما تثقفه الأذن، ومنها ما تثقفه اليد، ومنها ما يثقفه اللسان. من ذلك اللؤلؤ والياقوت، لا تعرفه بصفة ولا وزن، دون المعاينة ممن يبصره. ومن ذلك الجهبذة بالدينار والدرهم، لا تُعرف جودتهما بلون ولا مسّ ولا طراز ولا وسم ولا صفة، ويعرفه الناقد عند المعاينة، فيعرف بهرجها وزائفها وستّوقها ومفرغها"[2].

ويشير ابن سلام لدور الناقد، فيقول:" وقال قائل لخلف: إذا سمعت أنا بالشعر أستحسنه فما أبالي ما قلتَ أنت فيه وأصحابك. قال : إذا أخذت درهما فاستحسنته، فقال لك الصرّاف: إنه رديء، فهل ينفعك استحسانك إياه؟"[3]

اصطلاحا

من الصعب تحديد أول من استعمل اللفظة بمدلولها الاصطلاحي، لأن النقاد العرب القدامى عرفوا النقد ممارسة قبل أن يعرفوه مصطلحا[4]، وقد جاء هذا الاستعمال مقصورًا على طائفة

---

[1]- الزبيدي، تاج العروس مادة نقد.

*- الجهبذة: نقد المزيف والصحيح من الدراهم والدنانير.

[2]- ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، ج1، ص 5. و ابن رشيق: العمدة

[3]- المصدر نفسه، ص

[4]- ينظر: طه إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي عند العرب،

قليلة، منهم: المفضل الضبي، المتوفى سنة 168 هـ، وهو يتحدث عن راوٍ من الرواة، اسمه حماد الراوية، فيقول المفضل الضبي عنه: قد سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده، فلا يصلح أبدًا. فقيل له: وكيف ذلك؟ أيخطئ في روايته أم يلحن؟ فقال: ليته كان كذلك، فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها، ومذاهب الشعراء ومعانيهم، فلا يزال يقول الشعر يشبه مذهب رجل، ويدخله في شعره، ويحمل ذلك عنه في الآفاق، فتختلط أشعار القدماء، ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد، وأين ذلك .!

كما استعملها الجاحظ (255ه) بمدلولها الاصطلاحي حيث قال: "...بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعاني..."[1]. وميز الجاحظ بين أنواع عديدة من النقد والنقاد، فقال: " طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن إلا غريبه، فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه، فعطفت على أبي عبيدة فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالأيام والأنساب، فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب".[2]

كما كان قدامه بن جعفر (ت 337 هـ) من أوائل من استعملها في كتابه : (نقد الشعر)، في القرن الرابع الهجري.

كما استعملها ابن طباطبا في قوله: ".. وكم من زائف وبهرج قد نفقا علة نقادهما، ومن جيد نافق قد بهرج عند البصير بنقده فنفاه سهوا.."[3].

كما استعملها قدامة بن جعفر وجعلها مضافة إلى الشعر في كتابه (نقد الشعر) وذكرها في مقدمته حيث قال: "ولم أجد أحدا وضع في نقد الشعر وتخليص جيده من رديئه كتابا..."، وقال إن النقد علم مجاله تخليص الجيد من الرديء[4].

وسئل البحتري (284ه) أمسلم أشعر أم أبو نواس؟ فقال: بل أبو نواس، لأنه يتصرف في كل طريق، ويبرع في كل مذهب، إن شاء جدّ وإن شاء هزل. ومسلم يلزم طريقا واحدا لا

---

[1]– الجاحظ، البيان والتبيين، ج1،

[2]– نقلا عن:محمد عزام: المصطلح النقدي في التراث الأدبي

[3]– ابن طباطبا العلوي(محمد بن أحمد) عيار الشعر ،

[4] – قدامة بن جعفر، نقد الشعر،

يتعداه. فقيل له إن ثعلبا لا يوافقك على هذا. فقال: أيها الأمير ليس هذا من علم ثعلب وأضرابه ممن يحفظ الشعر ولا يقوله، فإنما يعرف الشعر من دُفِع إلى مضايقه[1].

ومن الآراء النقدية التي تعبر عن وظيفة النقد بمعناه الاصطلاحي قول القاضي علي عبد العزيز الجرجاني صاحب كتاب الوساطة: " الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء، ثم تكون الدربة مادة له، وقوة لكل واحد من أسبابه؛ فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان. وقال: ولست أفضل في هذه القضية بين القديم والمحدث، والجاهلي والمخضرم، والأعرابي والمولّد، إلا أني أرى حاجة المحدث إلى الرواية أمس، وأجده إلى كثرة الحفظ أفقر، فإذا استكشفت عن هذه الحال وجدت سببها والعلة فيها أن المطبوع الذكي لا يمكنه تناول ألفاظ العربي إلا رواية، ولا طريق إلى الرواية إلا السمع، وملاك السمع الحفظ ".[2]

مسار النقد الأدبي خلال عصور الأدب العربي

إن النقد الأدبي عند العرب نشأ في شكل ملاحظات على الشعر والشعراء، قوامها الذوق الساذج، فكان ذلك سببا لتجويد الشعر. وقد ارتبط ذلك باللفظ والمعنى الجزئي، والاعتماد على الانفعال والتأثر، دون أن تكون هناك قواعد مدونة، يرجع إليها النقاد في شرح أو تعليل.

1- في العصر الجاهلي: ومن أمثلة ذلك ما ورد من أن المتلمس قد ألقى قصيدة على جمع من الناس، وفيهم طرفة بن العبد. فلما قال المتلمس:

وإني لأمضي الهم عند احتضاره بناج عليه الصيعرية مِكْدَمِ

ومعنى البيت: (إنني أتغلب على الهموم التي تحضرني بالسير على جملي فأنجو منها به).

عندئذ قال طرفة : استنوق الجمل، (أي جعله ناقة) . لأن الصيعرية سمة تكون في عنق الناقة لا في عنق البعير [3].

ومن الأمثلة على بداية النضج في النقد ما كان يحدث في سوق عكاظ أشهر أسواق

---

[1]- نقلا عن: محمد عزام: المصطلح النقدي في التراث الأدبي،

[2]- ابن رشيق: العمدة،

[3]- ينظر: طه أحمد إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلأى القرن الرابع الهجري،

العرب، فيروى أن النابغة كانت تضرب له قبة من أدم ويأتي الشعراء فينشدونه أشعارهم فيكون له الرأي الأول والأخير، فيشتهر الشاعر الذي استحسن شعره، ويذكر أن من بين الشعراء الذين نوه بهم: الأعشى والخنساء وحسان بن ثابت، وتقول الرواية أنه لما أنشده حسان قصيدة منها:

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

فنقده النابغة وقال له:

- إنك قلت: (الجفنات) وهي من جمع القلة ، والأحسن لو قلت (الجفان) لكثرة العدد .

-وقلت: يلمعن) (في الضحى) أي تلمع في وضح النهار – ولو قلت (يبرقن) (في الدجي) لكان أبلغ لأن الضيوف في الليل أكثر طروقا .

- وقلت أيضا: (أسيافنا) وهي جمع قلة – ولو قلت (سيوفنا) جمع كثرة لكان أفضل .

- وقلت (يقطرن دما) أي تسيل منها قطرات الدم . ولو قلت يجرين) لكان أفضل فجريان الدم دلالة على كثرة القتلى من الأعداء .

ونلحظ في نقد النابغة السابق أنه يركز على مدي دقة استعمال الكلمات الملائمة للمعني ، وكيف تكون كلمة أدق وأبرع في التعبير عن المعني المراد لأن نجاح الشاعر في اختيار أدق الكلمات المناسبة يسهم في قوة المعني وتأثيره في نفس السامع.

هذه الشواهد تدل على وجود أشكال من صور النقد الأدبي في العصر ا لجاهلي.

2– في صدر الإسلام: جاء في كتاب الأغاني: أخبرنا أحمد بن عبد العزيز الجوهري قال: حدثنا عمر بن شبّة قال: حدثنا ابن عائشة قال: أُنشِدَ النبي صلى الله عليه وسلم قول عنترة:

ولقد أبيت على الطوى وأظله حتى أنال به كريم المأكل

فقال صلى الله عليه وسلم: ما وُصِفَ لي أعرابي قط فأحببت أن أراه إلا عنترة.[1]

ومن آراء عمر بن الخطاب النقدية ما ورد في كتاب الأغاني " قال عمر بن الخطاب ليلة مسيره إلى الجابية (قرية قرب دمشق) أين ابن عباس؟ فأتيته فشكا تخلف عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فقلت: أولم يعتذر إليك؟ قال: بلى. قلت فهو ما اعتذر به. ثم قال... هل تروي لشاعر الشعراء؟ قلت ومن هو؟ قال الذي يقول:

ولو أن حمدا يُخلِدُ الناسَ أخلدوا ولكن حمد الناس ليس بمخلد

[1]– أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني،

قلت ذاك زهير. قال فذاك شاعر الشعراء. قلت وبم كان شاعر الشعراء؟ قال: نه كان لا يعاظل في الكلام، وكان يتجنب حوشي الشعر، ولا يمدح احدا إلا بما فيه.[1]

3- في عصر بني أمية

لما قدم القرن الهجري الأول تعددت بيئات الشعر، فقوي النقد بقوته، وتعددت نواحيه، فمن نقد لغوي، إلى آخر نحوي، وثالث عروضي، ورابع يلحظ البيئة، وخامس يُعنى بأحوال الشاعر في العملية الإبداعية ...إلخ.

وكان خلفاء بني أمية يعقدون المجالس الأدبية يتحدث فيها الحاضرون عن الشعر والشعراء، ويلقي المادحون قصائدهم فتنال الاستحسان أو الإعراض والانتقاد، واشتهر الخليفة عبد الملك بن مروان بأحكامه النقدية، فيروي عنه أنه قال لمادحيه : «تشبهونني مرة بالأسد ومرة بالبازي ومرة بالصقر، أما قلتم كما قال كعب الأشقري:

ملوك ينزلون بكل ثغـــــر إذا ما الهام يوم الروع طارا
رزان في الأمور ترى عليهم من الشيخ الشمائل و النجارا
نجوم يُهتـــــدي بهم إذا ما أخو الظلماء في الغمرات جارا

ومن الشواهد النقدية لهذا العصر كذلك مدح ابن قيس الرقيات عبد المالك بن مروان بقصيدة جاء فيها:

إن الأغرّ الذي أبوه أبو العا ص عليه الوقار و الحجب
يعتدل التاج فوق مفرقه عـــلى جبين كأنه الذهب

فقال له الخليفة : يا ابن قيس تمدحني بالتاج كأني من العجم ! ، وتمدح " مُصْعَبا " كأنه شهاب من الله . وذكَّر الشاعر بما قال في مدح مصعب بن الزبير ، و رأى ذلك أجمل مما قال فيه في قوله:

إنما مصعب شهاب من الله تجلّت عن وجهه الظـــلماء
ملكه ملك عِزّة ليس فيه جَبروت ولا فيه كِبريـــــاء

كما تنقل كتب الأدب في هذا العصر الكثير من المواقف النقدية لسكينة بنت الحسين، ولابن أبي عتيق وغيرها...

---

[1]- أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني

4- في العصر العباسي

يعد العصر العباسي عصر العلم والدراسات والمناظرات الفلسفية والدينية، والمؤثرات الأجنبية والصراع بين القديم والمحدث، وفي هذا العصر خطأ النقد خطوات فسيحة باتجاه التجرد من تأثير العواطف والأهواء والعصبيات، واعتمد على العلم والمنطق في التحليل الأدبي، وعلى تعليل الظواهر الأدبية، وابعث النقد في هذا العصر من ثلاث نزعات أو اتجاهات[1]:

1- اتجاه عربي صرف لم تمازجه ثقافات وافدة أو تؤثر فيه عوامل دخيلة، وقد تمثل هذا الاتجاه عند جماعة اللغويين والنحاة كالخليل والأصمعي وأبي عمرو بن العلاء والنضر بن شميل والكسائي والأخفش وابن الأعرابي والمبرد ومن على شاكلتهم ممن كانت لهم دراية باللغة وأصولها والشعر وروايته.

وصور هذا النقد مبثوثة في ثنايا كتب الأدب والنقد الأولي كالأغاني لأبي الفرج والموشح للمرزباني والنثر والشعراء لابن قتيبة وطبقات ابن المعتز وغيرها كما تمثل هذا الاتجاه عند بعض النقاد الأوائل الذين عالجوا النقد حسب ما انتهى إليه علمهم في مصنفات مستقلة، رتبوا فيها الشعراء الى طبقات كما فعل ابن سلام، أو تناولوا فيها الحديث عن الشعراء وأخبارهم ومنزلتهم كما فعل ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء[2].

2- اتجاه عربي اعتمد على الطبع والذوق ثم دعمته الثقافات المنوعة التي نهضت به و غذته وكانت له رافداً قوياً، ولكنها لم تقض على أصالته وسمات عروبته وهو ما نلحظه عند الآمدي في موازنته، وعند القاضي الجرجاني في وساطته، وذلك في باب نقد الشعر، وعند رجل كالجاحظ في جمال نقد النثر.

وقد اتسم نقد هؤلاء باستقصاء البحث وشمول الفكرة وتوضح العلة والموازنة بين الشعراء.

3- وثالثهما :اتجاه تأثر فيه أصحابه بالتيارات الثقافية الأجنبية شكلاً وموضوعاً حيث خضع النقد فيه لسلطان المنطق والفلسفة وغلب فيه العقل على الذوق والفكر على الحس، وقد تمثل هذا الاتجاه عند قدامة ابن جعفر في كتابه –نقد الشعر– الذي كان تأثره فيه بمنطق اليونان واضحاً.

---

[1]- محمد عزام: المصطلح النقدي في التراث العربي،

[2]- ينظر: طه أحمد إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلأى القرن الرابع الهجري، .. zوما بعدها.